مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية
ISSN: 2437 - 0363 EISSN 2602-6767
المجلد 10 / العـدد: 01 (2024)، ص 115- 128

السلاطين الحفصيين ودورهم في مساعدة الفئات العامة بالمغرب الأدنى

The Hafsid Sultans and Their Role in Helping the Common Classes in Near Morocco

بختة خليلي*
[1] جامعة غليزان (الجزائر)، bakhta.khelili@univ-relizane.dz

تاريخ الاستلام: 2023/03/13 تاريخ القبول: 2024/02/14 تاريخ النشر: 2024/06/01

ملخص:

أولى سلاطين المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأدنى خاصة اهتماما ورعاية كبيرة لاقتصاد دولهم، هادفين تحسين المستوى المعيشي وتحقيق الرخاء والأمن الغذائي، تفاديا بذلك التعرض لبعض الأزمات الاقتصادية والآفات الاجتماعية داخل المجتمع الحفصي بمختلف شرائحه، وتجلى حرص بعض السلاطين على تقوية البنية الاقتصادية من خلال سياستهم التنموية التي اعتمدوا عليها في كل من الزراعة والتجارة والصناعة، وكذا ما أقاموه من هياكل دعمت اقتصادهم وزادت من قوتهم وعادت بالنفع عليهم وعلى مجتمعهم، لا سيما الجانب المادي والصحي والامنية.

كلمات مفتاحية: الحفصيين، المغرب الأدنى، الآفات الاجتماعية، الفقر.

Abstract:

The sultans of the Islamic Maghreb in general and the Near Maghreb in particular paid great attention and care to the economy of their countries, aiming to improve the standard of living and achieve prosperity and food security, in order to avoid exposure to some economic crises and social ills within the Hafsid society in its various segments, and the keenness of some sultans to strengthen the economic structure was evident through their development policy that They relied on it in agriculture, trade, and industry, as well as the structures they built that supported their economy, increased their strength, and benefited them and their society, especially the financial, health and security aspects.

Keywords: Hafsids; Lower Morocco; social ills; poverty.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

عرف المجتمع الحفصي ككل المجتمعات كوارث وآفات طبيعية وبيئية لا حصر لها، كالقحط والجفاف والأوبئة والأمراض والطواعين مما أثر ذلك على الناحية الاجتماعية للسكان بما فيهم الطبقات الدنيا والهشة التي اصطبغت بأوصاف العدم والخصاصة، فقد كان يصل المر بهذه الطبقات إلى العجز حتى عن الحصول على ماء الشراب أيام الجفاف لأن الماء يتحول إلى بضاعة تباع بثمن مرتفع جدا، والظاهر أن تلك الجوائح كثيرا ما كانت تنجم عنها مجاعات شديدة الوقع مما يؤدي بتلك الطبقات إلى التسول، وهي كلها آلام عاشها أفراد المجتمع الحفصي أيام الشدائد، وهو الأمر الذي أدى ببعض السلاطين والفقهاء والصلحاء إلى محاولة تقديم يد العون واسهامهم ولو بقليل في التخفيف من معاناتهم الشديدة.

وعليه سنروم من خلال هذه الورقة البحثية رصد مدى اسهام ودور ومساعي كل من السلاطين الحفصيين والفقهاء والوجهاء تجاه الفئات الضعيفة والعامة أيام المحن والشدائد وذلك من خلال ما توفر لدينا من نصوص تاريخية خلال العصر الوسيط؟.

2-مساعي وجهود بعض السلاطين الحفصيين لتحسين المستوى المعيشي للسكان ومواجهة الفقر:

إن الحديث عن مساعي بعض السلاطين الحفصيين لأجل تحسين المستوى المعيشي وبث الأمن والاستقرار داخل المجتمع الحفصي خلال الفترة (7-9هـ /13-15م)، يجرنا إلى الحديث عن الجهود التي بذلت من طرف بعض ملوك الدولة الحفصية في مختلف الأنشطة الاقتصادية، الاجتماعية، والدينية، خدمة لأفراد مجتمعها خاصة أثناء الأزمات الاقتصادية، والكوارث البيئية، كالمجاعات والأوبئة والأمراض، وانتشار معضلة الفقر بين السكان لاسيما أوقات الحروب والفتن الداخلية والخارجية. وعليه فلاشك أن ضمان السلم والأمن والاستقرار الاقتصادي والاجتماعي في أيّ بقعة جغرافية مرهون بحكومة لها قبضة يد في تسيير أمورها، وذلك سوف يكون كفيلا بضمان الاستقرار السياسي، ومن ثمة انتعاش الحياة الاقتصادية والاجتماعية للسكان.

وغني عن البيان أن إفريقية الحفصية شهدت هي الأخرى انتعاشا اقتصاديا كبيرًا عم مختلف مناطقها خلال فترات الاستقرار بفضل عدة عوامل منها: المقومات الطبيعية التي تمتلكها، وسيطرة

الإنسان الحفصي على الطبيعة بالزراعة والصناعة، والتغلب على نواقص البيئة واستثمار فائضها بالتجارة وهي دعائم مثلت ركيزة من ركائز الاقتصاد الحفصي بجعله غنيًا أو فقيرًا.

وقد كانت سياسة الأمير أبو زكريا الحفصي الذي استفرد بإمارة بني حفص حسب قول ابن الشماع "هو أول بني حفص بالاستفراد بالإمارة" (بن الشماع، صفحة 58)، بداية طيبة لتحقيق ذلك الاستقرار، فعمل هذا الأخير على إخضاع كامل أنحاء افريقية تحت سلطته في وقت قصير إلى ما كانت عليه في عهد الدولة الصنهاجية، الأمر الذي مكنه من تأسيس المملكة الحفصية من منطقة القبائل الكبرى إلى منطقة سرت الكبرى، التي سيكتب لها الدوام مدة ثلاثة قرون (برنشفيك، 1999، صفحة 51) بتعاقب -حوالي واحد وعشرون سلطانا- بين قوي وضعيف على حكمها. ساعين البعض منهم إلى العمل على تحقيق الأمن والاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي لأفراد المجتمع من خاصة وعامة.

واتسمت سياسة السلطان المؤسس للدولة الحفصية أبو زكريا الحفصي (626-647هـ/1229-1249م) (مقديش، 1988، صفحة 549) بالصلاح والاستقرار حسب قول الزركشي "حيث صلحت به البلاد، ورخت الأسعار، وأمنت الطرق، وجمع من الأموال والسلام ما لم يجمعه أحد" (الزركشي، 1966، صفحة 25) كما ذكره صاحب كتاب الحلل في نظم الدول في قوله "فخلا للأمير أبي زكريا الجو ودانت له إفريقية فاستكثر من الأموال واستلحق الجيوش ودوخ العربان..." (لسان الدين، صفحة 62)، وتعد فترة حكمه أبهى وأعظم الفترات في حكم الدولة الحفصية، وما يعزز ذلك شهادة ابن قنفد في كتابه الموسوم بالفارسية، حيث قال بأنَّه كان"...ملكا جزلا، فاضلا مدركا، عالما مجيدا،... وله أحوال جميلة لم تكن في غيره من الملوك،... وكانت أيامه خير أيام وأكثرها سعادة وأدرها أرزاقا، وأكثرها أفراحا، ونام الناس معه على مهاد العافية، واكتسبوا الأموال، وأكثروا الغراسات (ابن قنفد، 1968، صفحة 112)".

كما أشار ابن قنفد في موضع آخر إلى عدله وسياسته في جمع الأموال التي لا تحصى ولا تعد لكثرتها حسب قوله "جمع بعدله وسياسته أموالا لا تحصر إلا بالبيت. والبيت عبارة عن ألف ألف. وذلك مائة ألف عشر مرات" (ابن قنفد، 1968، صفحة 113)، وأكد ذلك ابن أبي دينار القيرواني في قوله "سبعة عشر ألف بيت والبيت ألف ألف" (القيرواني، 1993، صفحة 157)، وهي نصوص تبين وتؤكد لنا أنَّ أبو زكريا الحفصي استطاع تحقيق الاستقرار الاقتصادي بتوفير احتياطا ماليا كبيرا لبناء دعائم الدولة بمختلف ركائزها، وهياكلها ساعيا إلى تحسين ظروف وأحوال رعيته لاسيما منها الفئات الضعيفة الدخل.

والظاهر أنَّ في عهده تمكن الحفصيين من السيطرة على الطرق الصحراوية لتجارة الذهب وإبرام معاهدات تجارية مع جنوة وصقلية وايطاليا، فازدهر بذلك قطاع التجارة ممَّا انعكس ذلك ايجابيا على الناحية الاجتماعية للسكان، وممَّا شجع أيضا الأندلسيون على الهجرة إلى تونس والإسهام في الحياة الاقتصادية والعلمية معا، ولتسهيل عملية البيع والشراء بين أفراد مملكته قام بإنشاء أسواق لائقة حول جامع المدينة (برنشفيك، 1999، صفحة 53) منها سوق العطارين (بن الشماع، الصفحات 56-57)، وقد كان نجاحه –أكثر – في التشجيع على طلب العلم وإقامة معالمه، فقد أنشأ أقدم مدرسة عمومية وفقا للنماذج المشرقية بإفريقية وكانت في متناول رغبات سواد الشعب (برنشفيك، 1999، صفحة 67).

ولعل فيما أوردناه أعلاه عن جهود أبو زكريا الحفصي يبين ويؤكد مدى حرصه وسعيه في ضمان السلم والأمن للبلاد والرخاء الاقتصادي للرعية، اللذان تحققا بالفعل في عهده. فقد انتعشت الزراعة والصناعة التقليدية بقوة وانجر عن ذلك ازدهار التجارة، وخير دليل على ذلك توطيد العلاقات التجارية الخارجية مع النصارى (برنشفيك، 1999، صفحة 54).

وإمعانا في الاهتمام بشؤون الرعية والبلاد الحفصية وأصل ولي العهد السلطان محمد المستنصر بالله ابن أبي زكريا يحي الحفصي (647-675هـ/1249-1276م) (ابن قنفد، 1968، صفحة 117) على نفس الدرب الذي سار عليه والده في تحقيق الأمن والسلام، وذلك بالتصدي للحملات الخارجية التي كانت تهدد كيان الدولة بين الحين والآخر، ومثال ذلك تمكنه من إفشال (ابن خلدون، 2000، الصفحات 424-429) حملة لويس التاسع الصليبية على تونس في (668هـ/1270م) (ابن قنفد، 1968، صفحة 131) بفضل تمرسه ومعرفته لشؤون الحكم وخباياه وقدرته على بعد النظر للأمور السياسية، وأهم ما ميز فترة ولايته هو مبايعة الناس له بالبيعة العامة. فعهده كان يمثل أقصى الاتساع في النفوذ والإشعاع. فمن أعظم ما أحدثه، إقامته البستان الطائر المعروف بأبي الفهر الذي يشتمل على جنات معروشات التي طار لها ذكر في الآفاق، كما إهتم بالجانب العمراني فأكثر بناء المنشآت الدينية (ابن خلدون، 2000، الصفحات 404-405).

ولعل جهود السلطان الواثق يحي بن المستنصر(675هـ/1277م) كان لها بالغ الأثر داخل المجتمع الحفصي، فقد اهتم بنظيمة العدل وعمل على تطبيقها، وإفاضة العطاء على المحتاجين والفقراء (ابن خلدون، 2000، صفحة 433).

ويبدوا أنَّ فترة إمارة الأمير أبي حفص عمر (683هـ/1285م) (الزركشي، 1966، صفحة 51)، تميزت هي الأخرى برسوخ العدل، وانتشار الأمن والهناء، فصرف عنايته للاهتمام بشريحة الفقهاء

والصلحاء والوجهاء فكان يبرهم ويبادر إلى قضاء حوائجهم (ابن قنفد، 1968، صفحة 148). وكان الأمير أبي زكريا يحي ابن إسحاق (684هـ/1286م) أميرا على بجاية له اهتمام كبير بالعلم وأهله فقد قيل فيه "اشتغل أولاد الأمير أبي إسحاق بالملك والدنيا، واشتغل منهم الأمير أبو زكريا بابتناء المدارس، واقتناء الكتب وجمعها، وضم أنواع العلوم لها حتى الوعظ،... وبنى مسجدا بها، ورتب لها المساكن للطلبة، وأوقف عليها حبسا... فلما ملك ولده أبو البقاء أكمل غرض أبيه في ذلك" (ابن قنفد، 1968، الصفحات 155-156).

وبالمثل تعاظمت فترة الأمير أبو عبد الله محمد المعروف بابي عصيدة (694هـ/1296م) (ابن قنفد، 1968، صفحة 152)، باستقامة الأحوال والاهتمام بشؤون الرعية من خلال دفع المضرة عنهم والإحسان والكرم إليهم، فكانت أيامه أيام هدنة وسلم لا حرب، الأمر الذي مكنه إلى الانصراف والعناية بالجانب الزراعي والعمراني على حد تعبير ابن الشماع "فغرست الغراسات وشيدت الأبراج" (بن الشماع، صفحة 83)، وما يعزز التخريج أكثر شهادة ابن قنفد في قوله "ورتب الدولة أتم ترتيب" (ابن قنفد، 1968، صفحة 152).

وغير خفي أنَّ المولى أبو يحي أبو بكر(718هـ/1318م) استطاع أن يستقطب جموع العامة والخاصة حوله، من خلال انتهاج سياسة اللين والحسنى التي تميز بها معهم، فحسب ما وصفه ابن الشماع في احد النصوص" كان حليما ورحيما بهم... وكان لا يولي قاضيا حتى يشهد فيه بالخير من يثق بدينه، وكان لا يكافئ من فعل معه سوء إلا بالخير (بن الشماع، الصفحات 77-88-89)، ومما زاد تشبث الرعية به والإهلال به، لأنَّه كان كثير الصدقة عليهم" وتصدق بمال جزيل" (بن الشماع، صفحة 91) وفي عهده عرفت تونس نهضة اقتصادية لا مثيل لها رغم الثورات الداخلية التي كانت لا تنطفئ واحدة إلا وتشتعل أخرى، فقد بلغ من قوة اقتصادها حسب ابن الشماع في قوله "إلى أن كان بها أزيد من سبعمائة حانوت للعطارة، وما يزيد على مائة وعشرين طاحونة، وكان يطحن بها آلاف قفيز قمحا كل يوم، ألف تُبَل وألف تطحن وألف تغربل وألف تصنع " (بن الشماع، صفحة 91).

والجدير بالذكر أنَّه خلال هذه الفترة (من بعد خلافة أبو يحي أبو بكر إلى غاية خلافة أبو البقاء خالد بن أبي إسحاق إبراهيم) ظل التوتر السياسي وكثرة الدسائس والفتن الداخلية قائمة متمثلة في حركات تمرد وعصيان قامت بها الفئات الشعبية أو العامة من المجتمع، والتي ظهرت وتزامنت مع مرور المنطقة بسنوات عجاف كالجوع والفقر الذي لعب دور بارز في قيام اضطرابات اجتماعية واقتصادية أخلت بالأمن والاستقرار، إضافة إلى الصراع الأسري الحفصي حول السلطة، الأمر الذي أدى إلى

انشغالهم وتسخير قواهم المادية والبشرية لتهدئة الأوضاع السياسية وإخماد الفتن الحربية فيما بينهم، متناسين الاهتمام بشؤون الرعية اجتماعيا واقتصاديا وعلميا.

وخلال هذه الفترة بالذات والتي تزامنت بحركة السلطان أبو الحسن المريني إلى تونس سنة (747هـ/1249م) عكف هذا الأخير على جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم لمواجهة المد النصراني، كما حاول نشر التعليم وتعميمه في مراكز افريقية، بواسطة العدد الكبير من كبار العلماء والفقهاء (حوالي 400عالم) الذين ساروا معه في هذه الحركة، كما كان يربوا من هذه الحركة إلى محاولة تطويع البدو في افريقية بسلوك سياسة تجعل منهم عنصرا مندمجا في الجماعة، لا عنصرا يسلك سلوك الفوضى والتخريب، كما عمل على رفع العديد من المغارم والضرائب بها (الزرهوني، 1987، صفحة 24).

ولعل سياسة الأمير أبي العباس أحمد بن أبي بكر (772-796هـ/1375م-1398م) جاءت بالنفع على البلاد والعباد، فقد استطاع ترتيب أمور الأقاليم، وإيقاف الفوضى والقضاء على الفساد الذي أشاعه الأعراب في البلاد، وحسبنا في ذلك كلام ابن الشماع "ثم شغبت العرب عن السلطان لأنه مسك أعنتهم عن التغلب، والاستبداد، وانتزع ما بأيديهم من الأمصار" (بن الشماع، صفحة 110)، فتمكن السلطان من توحيد الدولة الحفصية بعد أن كانت مقسمة إلى قسمين بجاية وتونس، الأمر الذي ساهم في ازدهار الاقتصاد الحفصي من خلال إبرامه العديد من المعاهدات التجارية مع دول اروبا (بن الشماع، الصفحات 110-110)، كما وجه السلطان عنايته واهتمامه بالأسطول البحري وحرص على زرع الأمن بالبلاد والطرق حسب قول ابن قنفد "وأصلح ما هدم واسكن ما تزلزل" (ابن قنفد، 1968، صفحة 177).

وفضلا عن ذلك فقد أشادت مصادر الفترة بشيم هذا السلطان وفضائله على رعيته فعلى سبيل المثال قول ابن الشماع "ومن فضائله وبره برعيته أنَّه كان يقيم القراءة بالأسبوع بالمقصورة غربي جامع الزيتونة في كل يوم " (بن الشماع، الصفحات 110-111) ولم تستثني مصادر الوقت ما قام به الأمير لصالح رعيته" رفع الضرر والتضييق على أهل قرطاجة وقت خروجه (بن الشماع، الصفحات 110-111)، كما سُرَ به أهل قسنطينة من خلال إصلاحه ما فسد من الأمور بها وإخراجهم من الضرر الذي كانوا فيه (ابن قنفد، 1968، صفحة 184)، ومن مناقبه زيارته لشيخ المشائخ أبا مدين ووعده لله سبحانه وتعالى هناك أمامه أن لا يكافئ من عمل معه سوءا إلا بالخير (ابن قنفد، 1968، صفحة 184) ى.

وتعج مصادر الفترة بفضائل السلاطين الحفصيين تجاه رعيتهم من خلال السعي لإرضاء الرعية وتحسين المستوى المعيشي لهم، بسماع شكاياتهم وقضاء حاجياتهم، فهذا السلطان أبو فارس عبد العزيز (797-838هـ/1394-1434م) الذي قام بالأمر أتم قيام حسبنا في ذلك قول ابن قنفد "بويع...على رضا

الناس، رتب الأحوال...، وجعل في كل خطة من يصلح لها، وظهرت الدولة الحفصية أتم ظهور، وتضاعف الفرح بها والسرور" (ابن قنفد، 1968، الصفحات 189-190)، وممَّا يعزز الطرح أكثر ويعظم فضائل هذا السلطان على رعيته شهادة الزركشي في قوله "فاستقامت الأمور بتونس في أيامه كلها أحسن استقامة (الزركشي، 1966، صفحة 115)، كما كانت له التفاتة طيبة في تشيد الكثير من المرافق ذات الطابع العمراني المدني والديني التعليمي، وذاع صيته في العالم الإسلامي، بفضل التبرعات التي كان يقدمها إلى المؤسسات الدينية في جميع المدن الإسلامية بما في ذلك القاهرة والحرمين الشريفين (برنشفيك، 1999، صفحة 247).

كما أحدث الكثير من الإجراءات من اجل الحماية والأمن والسلام، بإنجاز العديد من المحارس التي ثبطت عمليات القرصنة والتي أدت إلى ثراء العديد من أصحاب المدن (برنشفيك، 1999، صفحة 445) فمن المحارس نذكر"... ومنها بناؤه محارس جملة تحوط ثغور المسلمين كمحرس ودار والحمامات وأبي الجعد ورفراف وغير ذلك..." (الزركشي، 1966، صفحة 116).

2-1- دورهم في أيام المحن والشدائد وفي رفع الضرائب والمفاسد:

لا غرو، فالمتصفح للمصادر الحفصية المتوفرة حول سير السلاطين الحفصيين يكشف دون عناء حجم الجهود والمساعي المبذولة من طرف أمرائها في سبيل تحسين ظروف وحياة أفراد المجتمع الحفصي، خاصة في أوقات المحن والأزمات الاقتصادية، بتطبيق سياسة محاربة الفساد والغش، واثباط المعاملات التجارية الغير قانونية (القرصنة)، وكبح جور وظلم الولاة الذين يقومون بفرض جبايات ومغارم مجحفة في حق فقراء وبؤساء ضعاف الدخل، والعمل على تحقيق قوله عليه الصلاة والسلام "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (الحنبلي، 2001، صفحة 285)، فالإسلام أقر كفالة الغني للفقير وجعل بواعث التعاطف والتراحم والتساند أوثق عروة، والخلفاء الحفصيين كان لهم دور بارز تجاه فقرائهم ومحتاجيهم وعليه يمكن أن نتساءل حول نوعية تلك المساعدات والخدمات التي باشروها الخلفاء لأجل التخفيف من معاناة تلك الشرائح المهمشة في المجتمع. فيدون في هذا الباب أهم التدابير، وحجم المعونة، ومقدار تكافل السلطة لرعيتها أيام المحن والشدائد التي ضربت المغرب الحفصي، خاصة في أوقات المجاعات والقحوط وطول فترة الحروب والفتن.

جرت العادة لدى سلاطين الدولة الحفصية حسب ما أشادت به الكثير من مصادر المرحلة، الوقوف بجانب أفراد مجتمعها زمن المسغبة أو الحصارات وما شابه ذلك من الفواجع، فهذا السلطان

أبو عمرو عثمان (839-894هـ/1435-1488م) كان له دور بارز عقب المجاعة التي ألمت بالشعب الحفصي سنة (862هـ/1460م) فحسبنا في ذلك شهادة الزركشي في قوله "وقعت بتونس مجاعة وغلاء في الطعام أصاب الناس فبلغ قفيز القمح أربعة دنانير ذهبا والشعير على الشطر من ذلك فشكى الناس قلة الطعام وغلاءه للسلطان فأمر بأن يخرج من المخزن في كل يوم ما يصنع منه ألف خبزة وتفرق على الفقراء بتونس بباب ينتجمي فابتدى بتفريقها في ثالث ربيع الثاني إلى رجب حتى كثر الطعام ورخص ثمنه" (الزركشي، 1966، صفحة 150).

وقد تعددت أوجه المساعدات واختلفت، فشملت رفع المظالم ودفع الضرر، وتسريح أهل السجون، وإبطال الكثير من الضرائب والمغارم المسلطة أيام الشدة على الرعية، ومثال ذلك ما فعله السلطان الواثق يحي بن المستنصر خلال اعتلائه الحكم حسب قول ابن خلدون "فقد افتتح أمره برفع المظالم عن الناس، وتسريح أهل السجون وإفاضة العطاء على المحتاجين والفقراء، واهتم ببناء وإصلاح المساجد، وسعيا منه لدفع الحرج عن رعيته لعدم تمكنهم من دفع الضرائب والمغارم أبطل الكثير منها، وأمر بإحراق دفاترها، وإزالة كثير من الوظائف عن الناس" (ابن خلدون، 2000، صفحة 433).

ولعل ابرز نموذج مساعدة ما فعله السلطان أبو يحي أبو بكر (718هـ/1318م) حسب شهادة ابن الشماع حيث قال كان السلطان "لا يقع بصره على مسجون إلا أطلق سراحه في الحين" (بن الشماع، الصفحات 77-88-89)، ويبدوا أن الخلفاء الحفصيين اتخذوا من الأعياد الدنية مناسبة لفك المساجين، فهذا السلطان أبو عبد الله المستنصر (838هـ/1434م) وحسب قول الزركشي "قام السلطان يوم عاشوراء بإطلاق أهل السجون" (الزركشي، 1966، صفحة 132).

كما برز دور الخليفة أبو فارس عبد العزيز (779هـ/1394م) في رفع المظالم عن الخلق... وإزالة المنكرات" (ابن قنفد، 1968، صفحة 195)، كما أحدث الكثير من الإجراءات ذات الصبغة الدينية والاقتصادية مثل إلغاء كثير من الإداءات غير الشرعية الموظفة على التجارة والصناعة، وتركه العديد من المجابى لوجه الله سبحانه، فمنها مجبى سوق الدهانة وكان قدره ثلاثة ألاف دينار ذهبا في كل عام إذ كان كل من اشترى شيئا من أنواع الأمتعة واللباس يغرم نصف عشر الدينار" (الزركشي، 1966، صفحة 116).

كما رفع بعض المغارم على بعض الفئات حسب قول ابن الشماع "... وكذلك كان على الزفافين، والغانيات مغارم فتركها عنهم وكذلك على المخنثين فتركها وأجلاهم من جميع بلاده لما بلغه عنهم من عمل المناكر فجميع هذه المجابي كلها تركها عنهم لوجه الله سبحانه" (الزركشي، 1966، صفحة 117)، كما أمر

بهدم الفندق الذي كان بباب البحر تباع فيه الخمر وكان مجباه عشرة ألاف في العام، فأقام بدله زاوية مدرسة لطلبة العلم وحبس عليها ما يقوم بها (ابن قنفد، 1968، صفحة 196).

كما لا ننسى الخدمات الجليلة التي قدمها أبو الحسن المريني إثر حركته إلى تونس فباشر برفع المظالم على المظلومين والمسجونين بغير حق ورفع المكوس والضرائب الجائرة (الزرهوني، 1987، صفحة 24) وإلغاء الإداءت التي يستخلصها الأعراب الرحل من المقيمين، سواء في المدن أو في الأرياف، بمقتضى الاقطاعات الحكومية أو العرف الجاري، وعوضهم عن استخلاص الجباية في بعض المدن، بعطايا عسكرية تدفعها الخزينة لهم مباشرة (برنشفيك، 1999، الصفحات 189-199).

2-2-تقديم خدماتهم للفقراء والمحتاجين :

لدينا من القرائن ما يدل ويكشف عن صفات السلاطين وحبهم لفعل الخير والبر بفقرائهم ومحتاجهم، فهذا السلطان أبو يحي أبو بكر كان حليما رحيما برعيته، كان كثير التصدق، حسب قول ابن الشماع "وتصدق بمال جزيل" (بن الشماع، صفحة 91)، كما روي عنه أن من محامده خجله واحترامه للمرأة التي أرضعته فكان لا يردها إن سعت في حاجة ما إليه، حسبنا في ذلك ما رواه ابن قنفد في قوله "ومن محامد أحواله أن المرضعة التي أرضعته كانت يتوسل بها في بعض الحوائج فإذا أرادت حاجة كشفت عن ثديها وجعلته في كفها ودخلت عليه، فكان إذا رآها غض بصره، وقال "اقضوا حاجتها"، كما كان لا يرد من يأتي إليه ساعيا في أمر ما، مثل حفيد الشيخ الفقيه أبو علي عمر الجبالي الذي كان يضع السوط الذي كان الفقيه جده يضرب به الخليفة أيام التعليم على كتفه الأيمن ظاهرا، فإذا رآه أحسن إليه وقضى حاجته، ومن خصاله الحسنة أيضا وصدقاته المؤبدة، تحبيسه الربع المعتبر على الجامعين بقسنطينة (ابن قنفد، 1968، صفحة 162).

أما السلطان أبي العباس أحمد بن أبي بكر فقد كان من شيمه السؤال عن الأقوام المخصوصين والمحتاجين لأجل مساعدتهم (ابن قنفد، 1968، صفحة 183). ومن فضائله أيضا ما أوقفه من أوقاف مؤبدة كإنشائه السبالة ببطحاء الشيخ ابن مردوم بداخل باب قرطاجة، وأوقف عليها أوقافا جليلة، فعم النفع بها جميع الناس (بن الشماع، الصفحات 110-111).

وتظل فضائل السلاطين تجاه رعيتهم من فقراء وبؤساء متواصلة من خلف عن سلف، فنجد السلطان أبو فارس الذي قام بالأمر أتم قيام حسب ابن قنفد "... وأعطى الأموال، وأكرم من كان مكرما عند والده" (ابن قنفد، 1968، الصفحات 189-190)، كما كانت لهذا السلطان التفاتة طيبة في تشيد الكثير من المرافق ذات الطابع النفعي التي عادت بالنفع على السكان حسب شهادة الزركشي "وأحدث في

أيامه بتونس حسنات ذات طابع ديني ونفعي منها: بناؤه لزاوية باب البحر من تونس بعد أن كانت بقعة معدة للمعاصي مجبلها للمخزن عشرة ألاف دينار ذهبا في كل عام ومنها بناءه للسقاية خارج الباب الجديد من تونس ترده الناس والدواب وأوقف عليه أوقافا تقوم بها...، ومنها بناءه للماجل... وهو من الأبنية الضخمة التي قل أن يبنى مثلها وأخرج منه سبيلين، أحدهما للشرب للعاطش..." (الزركشي، 1966، صفحة 116). ويصف ابن قنفد في موضع آخر ما أحدثه السلطان من خدمات لرعيته إذ يقول "... لأنَّ أمير المؤمنين –أيده الله– بنى دولته السعيدة على مركز الحق... وبذل المال الكثير للضعفاء، والواردين عليه من الشرفاء، وإزالة المنكرات، والأخذ مع ذوي الحاجات، والتفقد للأمور، والقرب من الخاصة والجمهور" (ابن قنفد، 1968، صفحة 195)، أمَّا عن كرمه وسخائه فكان كثير الصدقة محبا للخير وأهله، ومثال ذلك صدقته لأهل الأندلس، فقد كان يقوم بإرسال مداخيل العشر (برنشفيك، 1999، صفحة 258) والكثير من الطعام وغيرها من الحاجات الضرورية كإعانة لهم على عدو الدين (بن الشماع، الصفحات 113-114)، كما أحدث الكثير من الإجراءات ذات الصبغة الدينية كإنشاء مؤسسات المرستان للضعفاء والغرباء وذوي العاهات من المسلمين، إضافة إلى انجازه لأحدث الأشغال المائية (برنشفيك، 1999، صفحة 445).

ولاشك أنَّ هذا الشبل من ذلك الأسد، إذ سار السلطان أبي عبد الله على نهج والده أبو فارس بتقديم خدماته للمحتاجين حسب ما ورد ذلك في المصادر "كان رحيما موصوفا بالعفاف، محبا في الخير وأهله، مجبولا على فعله، مواضبا على أفعال البر، أنشأ زاوية سيجوم في غاية الحسن والإتقان، وعمل فيها جامعا للخطبة، وأسس بها رباطا لسكنى طلبة العلم، وأوقف عليها حبسا كبيرا، وجعل فيها سماطا للمقيمين بها والواردين عليها، فعم النفع بها وكان نعم العون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جبله الله على فعل الخير والمسارعة إليه (بن الشماع، الصفحات 117-118).

كما أسهم السلطان أبو عبد الله محمد المستنصر(838هـ/1434م) في تقديم خدمات عظيمة لرعيته فمن خصاله انه كان رحيما، محسنا عفيفا حليما بشعبه جواد يحوى كثيرا من خصال الخير، أخرج مالا كثيرا تصدق به على أهل المدارس والزوايا وذوي الحاجات والمرضى والمزمنين والأرامل والأيتام ووجه مالا جليلا لأهل الأندلس وأمر ببناء زاوية الشيخ صالح الولي سيدي أحمد بن عروس، وبنى سقاية الماء بداخل باب أبي سعدون وأوقف عليها ما يكفيها (بن الشماع، صفحة 120)، وشهادة الزركشي تكفي في ذلك، السلطان قام بالتصدق بالأموال الكثيرة على الفقراء والمساكين وطلبة العلم، كما زار قفصة وهو مريض وأمر بصدقة المال على الفقراء والمساكين وطلبة العلم (الزركشي، 1966، صفحة 132).

ويبدوا أنَّ السلطان أبو عمرو عثمان أخذته الرأفة على رعيته فأمر ببناء قلاع بجامع الزيتونة ليقي الناس من حر الشمس (الزركشي، 1966، صفحة 155)، كما قام بإكمال المدرسة المستنصرية التي بدأ بناءها أخوه السلطان المنتصر بسوق الفلقة بتونس، وبنى المدرسة والزاوية بجوار دار صولة وأمر ببناء السبالة الكائنة بداخل باب أبي سعدون سبيلا للناس والدواب (الزركشي، 1966، صفحة 135). وأمر بالسبيل قرب المارستان، وبناؤه للساقية بإزاء باب الجبيلة، وكذا إقامته لخزانة الكتب الكبيرة، وتحبيسه للكتب داخل المقصورة بمختلف تخصصاتها، وبناؤه لزاوية الفندق فوق غابة شريك وجعلها ملجأ للمبيت للواردين من الغرباء من تونس والقيروان ومختلف البقاع، وعدة زوايا أخرى يصعب تعدادها (الزركشي، 1966، الصفحات 135-136)، وبنى إلى جانب مدرسته التي بناها بزنقة الشيخ الولي سيدي محرز بن خلف مسجدا للصلاة، وأوقف عليها وقفا يكفي من بها من الغرباء وغيرهم، وجعل فيها سماط مستمرا يتصدق كل يوم على المحتاجين وجعل فيها ماء للسبيل مستمرا (بن الشماع، صفحة 122). ومن مآثره أيضا بناؤه لزاوية الزميت في موضع خوف وقفر على طريق المسافر من تونس مغربا، وجعل بها جامعا للصلاة ودرسا لقراءة العلم وأوقافا للمقيمين بها دائما والوافدين عليها، كما بنى ميضأة للوضوء في غاية الإتقان بدرب ابن عبد السلام وأوقف عليها أوقافا مؤبدة فكان فيها منفعة عظيمة (بن الشماع، صفحة 126)، ومن كرمه أنَّه كان يخصص صدقة جارية في كل عام لأهل الأندلس متبعا في ذلك سبيل أبنائه وأجداه الكرام وهو السلطان الذي كان منتهى أوج الدولة الحفصية (بن الشماع، صفحة 126). ومن مآثره أيضا السفر مع المسافرين لركب الحجاج لردع اللصوص (بن الشماع، صفحة 132).

3-مساعي الفقهاء والصلحاء والوجهاء الحفصيين لأجل الرفع من المستوى المعيشي ومواجهة الفقر:

إن الظروف التاريخية التي عرفتها إفريقية خلال الحقبة الحفصية لعبت دورا كبيرا في ظهور أزمات واضطرابات اجتماعية، جعلت من فئة الفقهاء والصلحاء والوجهاء الحفصيين السعي بشتى الطرق المادية أو المعنوية لأجل تحسين أوضاع الطبقات الدنيا من المجتمع.

3-1-دورهم في تقديم المساعدات المادية للفقراء:

لم يكن لفقهاء العهد الحفصي بمنأى عن المشاركة في مصالح مجتمعهم، سواء على الصعيد السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الفكري، إلَّا أنَّ المصادر أحجمت دورهم تجاه الفئات الضعيفة ما عدا بعض الإشارات المقتضبة هنا وهناك بين متونها، وعليه فسنرصد بعض المواقف المشرفة لهم تجاه هاته الفئات فعلى الصعيد المادي نذكر: الشيخ الفقيه الجليل، العابد المتقي، أبو النجم هلال بن يونس

بن علي الغبريني، كان من أهل الجد والاجتهاد ومن أهل العباد، له جاه ووجاهة اقتضاهما منصبه الرفيع وعرف عنه أنَّه كان يصرف أكثر مستغلاته من أرضه لوجه الصدقات (الغبريني، 1979، صفحة 185) رجاء كسب رحمة وثواب الله، كما كان الشيخ أبو القاسم أحمد بن الشيخ سعيد ، منقادا إلى فعل الخير ببثه الصدقات في أهل الحاجات وبذل المعروف إلى المعارف (ابن قنفد، 1968، صفحة 147). كما بادرت الولية الصالحة أم العلاء العبدرية بتقديم مساعدتها لهذه الفئات المستضعفة، حيث قيل أنَّ من حسناتها كانت تتبرع بما تتقاضاه من أجرة عملها في التعليم، وما كان يصلها من الجوائز الملكية الحفصية لصالح الفقراء والأسرى المسلمين (عبد الشكور، 2008، صفحة 331).

3-2-دورهم في قضاء الحوائج لدى الحكام :

العالم الكبير المقري أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار الرعيني ثم السوسي شيخ الأمير أبو زكريا، اشتغل بالعلم والإقراء، كان حسن الواسطة بين الناس الضعاف والأمراء، كان قاضيا لحاجات الناس مقبول القول عند الملوك وقيل فيه "أحب الأشياء إلى الشيخ أبي عبد الله السوسي المشي في حاجة الطالب على رجليه..." (ابن قنفد، 1968، صفحة 126).

كما كان الشيخ المعظم أبو سعيد ابن أبي زيد من بني أبي زيد الكبار بالمغرب، كان أحد الأخيار حسن الواسطة كثير التغافل عن الهفوات عظيم العناية بمن لاذ به، محسنا للفقراء لا يدل إلاَّ على الخير، ولا يسعى إلاَّ في مصلحة، توفي في (673هـ/1275م) (ابن قنفد، 1968، صفحة 133)، كما عرف الشيخ الصالح أبو مسعود بن عريف من جبال شلف، من أصحاب أبي مدين ولد سنة (630هـ/1232م) كان بحضرة السلطان أمير المؤمنين أبو بكر الحفصي سنة (711هـ/1415م) بقسنطينة، فوضع الله له القبول عند الأمراء الحفصيين، فكان لا يرد له حاجة عندهم "وأعانهم على ما يرضاه منهم، وعند ولاتهم في قضاء الحاجات وقبول الشفاعات وكف المدعى بالجنايات، فكان يدخل بذلك على المكروبين المسرات" (ابن قنفد، انس الفقير وعز الحقير، 1965، الصفحات 40-44).

فقد حضر عند السلطان أبي العباس بالجامع الأعظم من قصبتهم بقسنطينة، وطلبه في حوائج قضاها كلها إلا واحدة في تسريح مسجون تردد السلطان فيه وعسر عليه إطلاقه "فقال له الشيخ واله فان لم تطلقه لا خرجت عنك إلا غير طيب..." فأبى السلطان وخرج الشيخ ولكن بعد تفكير من السلطان أعاد الشيخ أبي مسعود وقال له "لا تأخذ علينا يا سيدي ونحن أولادك... ثم قضى له الحاجة" (ابن قنفد، انس الفقير وعز الحقير، 1965، صفحة 44)، كان يسعى في حوائج الناس ويكثر إلى باب السلطان في ذلك، وقال له الحاجب يوما" أكثرت من هذا فلا تعد، فسكت عنه، فخرج فلقيته امرأة وكلمته أن يرجع، فرجع

في حاجتها إلى الحاجب فأعلمه، فقضى حاجته وقال له "يا سيدي لا تتأخر عني في حاجة" وقد توفي سنة (749هـ/1450) (ابن قنفد، انس الفقير وعز الحقير، 1965، صفحة 46)، وكان كذلك الشيخ أبو هادي فارس، يقبل عطاء الأمراء وجوائز العمال، ويطلب ذلك ويوسع بها على المحتاجين وعلى تلامذته ولما توفي رفع كثير من متروكه لبيت المال لأنَّه لم يظهر له وارث وكان قد أوصى بذلك (ابن قنفد، انس الفقير وعز الحقير، 1965، صفحة 52).

4. خاتمة:

وصفوة القول أن الرعاية الاجتماعية بالطبقات الهشة كانت من أولويات العلماء والفقهاء وأهل وساسة بلاد المغرب الإسلامي عامة، إلا أن المصادر التاريخية اعترتها نوعا من الضبابية حول دورهم ومجهوداتهم تجاه هذه الفئات من المجتمع، على خلاف ما حضت به أعمالهم وجهودهم في الجانب الفكري، والثقافي، والعسكري من قبل المؤرخين لذا اقتصرنا على ذكر بعض جهود السلاطين فقط، وهذا لا يدل على أن السلاطين والفقهاء الآخرين لم يقدموا خدمات واسهامات لأفراد مجتمعهم، وإنما ذكر المصادر لهم كان مجحفا أحيانا، لا سيما سلاطين فترة نهاية الدولة.

5. قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن أبي دينار القيرواني. (1993). *المؤنس في أخبار افريقية وتونس*. بيروت، تونس: دار المسيرة، مؤسسة سعيدان.

2. ابن الخطيب لسان الدين. (بلا تاريخ). *الحلل في نظم الدول*. تونس: المطبعة العمومية.

3. أبو العباس الغبريني. (1979). *عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية*. (عادل نويهض، المترجمون) بيروت: منشورات دار الأفاق الجديدة.

4. ابو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع. (بلا تاريخ). *الادلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية*. (تحقيق وتقديم: الطاهر بن محمد المعموري) الدار العربية للكتاب.

5. أبي عبد الله الزركشي. (1966). *تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية*. تونس: المكتبة العتيقة.

6. الزرهوني. (1987). *ملعبة الكفيف الزرهوني*. (تح: محمد بن شريفة) الرباط: المطبعة الملكية.

7. القسنطيني ابن قنفد. (1965). *انس الفقير وعز الحقير*. (تح: محمد الفاسي فور أدولف) الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة اكدال الرباط.

8. القسنطيني ابن قنفد. (1968). *لفارسية في مباديء الدولة الحفصية*. تونس: الدار التونسية للنشر.

9. روبار برنشفيك. (1999). *تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ج 1*. (ترجمة حمادي الساحلي) لبنان: دار الغرب الإسلامي.

10.زين الدين عبد الرحمن الحنبلي. (2001). *وائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، ج2*. (جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله) السعودية، دار العاصمة - المملكة العربية السعودية.

11.عبد الرحمن ابن خلدون. (2000). *تاريخ ابن خلدون، ج6*. (سهيل وخليل شحادة زكار، المترجمون) بيروت: دار الفكر.

12.محمود مقديش. (1988). *نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، مج1*. (تر: علي الزواري، محفوظ محمد) بيروت: دار الغرب الإسلامي.

13.نبيلة عبد الشكور. (2008). *إسهام المرأة المغربية في حضارة المغرب الإسلامي، (النصف الثاني من القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن التاسع للهجرة)، أطروحة دكتوراه غير منشورة*. الجزائر.